تعريب الطب
مركز تعريب العلوم الصحية

المجلد 12 ، العدد 2
يونيو 2008

مزايا اللغة العربية

مركز تعريب العلوم الصحية*

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ سورة الزمر

لكل أمة ثقافة تخصها، وتتصل بغيرها، من الثقافات، وتتفاعل معها وتزداد بهذا التفاعل ثراءً وعمقاً وحيوية. وثقافة الأمة هي هويتها التي تميزها بما تنظمه من العقيدة والانحراف والأدب والعلم والعلاقات الإنسانية الداخلية والخارجية.

واللغة ليست عنصراً من عناصر الثقافة (فحسب) بل إنها أساس كل أنواع النشاط الثقافي، ومن ثم فهي أقرب الأدلة وأقواها عند استقصاء الملامح الخاصة لأي مجتمع معاصر. فاللغة وعاء الفكر، والمحددة لملامحه الخاصة والعامة، والمؤثرة في حاضره، ومستقبله، واللغة ليست رداءً ذا سَمْتٌ خاص تخلعه الأمة متى شاء لها الأعداء ومن نهج نهجهم، ليستبدلوه برداء آخر من صناعتهم، إنها المادة التي كتب بها الأجداد ثقافة الأمة وأدبها وعلومها، وسجلوا بها واقعها وأحلامها. وحقائقها وتخيلاتها، وتاريخها وكل ما يتصل بماضيها وحاضرها. إنها مستودع حضارتنا وجوهر ثقافتنا.

ولغتنا العربية كغيرها من اللغات هي أداة التعبير عن ذاتنا الحضارية الممتدة آلاف السنين، بما تحمله من آداب، وعلوم وثقافة، وهي لغة القرآن الكريم الذي أنزله الله بها للعالمين، يقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ «سورة الزخرف»، فاللغة العربية هي لغة كتاب الله للناس كافة، وهو الكتاب الذي تعهد الله بحفظه حيث يقول: ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ سورة الحجر.

وحفظ الله للقرآن ثابت بالأدلة النقلية والعقلية والواقعية، فها هو ذا كتاب الله بلغته العربية التي نزل بها لحفظه قراءة وكتابة بأدلة لا تقبل التشكيك.

وقد حفظ الله القرآن، وبه حفظ اللغة العربية في أرقى

* مركز تعريب العلوم الصحية ـ دولة الكويت.

صورة للغة وأدقها من حيث الأصوات والتراكيب. واللغة العربية بالنسبة للعرب هي هويتهم، وفوق ذلك هي لغة القرآن الكريم الذي يحفظه المسلمون، ويحفظه الله من قبل ومن بعد، فمهما حاول أعداء اللغة العربية وأذنابهم، والمغرورون بهم، الجاهلون بالعربية، أن يستخدموا السفسطة مدخلاً، لوضع الأوهام موضع الحقائق، لهدم تلك اللغة الإنسانية فلن تجدي محاولاتهم، بل إن اللغة ستقوى بعد كل محاولة ظالمة عليها، لأن الله سيقيّض لها من يكشف عن خصائصها وامتيازاتها، وعالميتها، وإنسانيتها، وخصائصها العلمية التي جعلتها أصلح اللغات للثقافة والعلوم والآداب.

وسنعرض لشهادتين من المستشرقين « لوى ماسينيون، وهنري لوسل» عن تلك المزايا، فقد أطلعتنا بحوث لوى ماسينيون على أن اللغة العربية قد امتازت بخصائص قلَّ أن نجد لها مثيلاً في اللغات الأخرى، وأبرز لوى ماسينيون في بحوثه ومحاضراته فكرة تبدو جديدة بالقياس إلى آراء المستشرقين السابقين، وهي أنه في حين أن اللغات الهندو-أوربية إنما جُعلت للتعبير عن نظام العالم الخارجي، نجد اللغة العربية وكأنها هي لغة التأمل الداخلي، تأمل الفكر والروح، وكأنها هي مجعولة لكي يتذوق أصحابها مقصداً من المقاصد الإلهية، ويقول ماسينيون أيضاً: «إن في اللغة العربية استعداداً للرؤية الجوانية يتذوقه من نشأ على التحدث به، وفي العربية بفضل تركيبها الداخلي، وطراز الخلوة التي توحي به قدرة ـ خاصة على التجريد والتروع إلى الكليّة والشمول، ومن هنا كان للعرب الفضل في اكتشاف رموز الجبر وصيغ الكيمياء والمسلسلات الحسابية.

وهذه شهادة جديدة من المستشرق الفرنسي «هنري لوسل» تؤكد ما ذهبنا إليه من خصائص الجوانية في اللغة العربية والمثالية الأصلية في فلسفتها قال: إن اللغة العربية ومعركة الحضارة الإسلامية تزودان الدارس بنظرة جديدة إلى العالم».

كما دعا إلى تعليم اللغة العربية في المدارس الفرنسية، مبيناً أن هذه اللغة تيسر الملاءمة السمعية مع اللغات الأخرى، فقال: إن التلميذ أو الطالب يجد في العربية معاني لغوية تختلف اختلافاً كبيراً عن معاني الفرنسية أو اللاتينية، أو أي لغة أوربية، وعن طريقها يتعرف المتعلم إلى عقلية العرب، حيث يجد نفسه أمام الأبجدية العربية، وربما كان في بادئ الأمر وضعاً للنقد، ولكنه سرعان ما يجد جاذبية خاصة، ويستوقف نظره في الوقت نفسه سير الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال، ولكن هذا السير يبدو مطابقاً لحركة فيزيائية أكثر اتفاقاً مع الطبيعة، ثم إذا به يكتشف كلمات ذات أصول مُلحّنة واضحة ونسقاً مبتكرة داخل الكلمة، يستبعد كل إضافة خارجية من المقاطع لأوائل الكلمات أو أواخرها، ويتيح ثروة من الاشتقاق للأصل الواحد.

وقال أيضاً: والواجب على من يتولون أمر الثقافة في فرنسا أن يصنعوا بالنسبة للعرب ما يصنعه أساتذة التاريخ بالنسبة إلى أوربا. يجب أن يعلموا الأطفال الفرنسيين شيئاً من الذخيرة الهائلة من الحضارة العربية. إن دراسة القرآن ـ ولو كانت دراسة سطحية ـ تكشف للتلاميذ شيئاً فشيئاً تصوراً جديداً للعالم، والدين الإسلامي يسري في حضارة القرآن كلها، فإذا تعمقناه استطعنا أن نفهم إلى حد كبير ما يجري في العالم العربي في أيامنا هذه»

هاتان الشهادتان عن اللغة العربية، من عالمين فاضلين غير مهتمين ورجاؤنا إلى المخدوعين من بني قومنا أن

يتدبروهما، ليراجعوا أنفسهم، وليكفوا عن ترديد آراء تقليدية عن قصور لغة وسعت كتاب الله عزَّ وجل لفظاً وغايةً، ولا تزال الدُّررُ كامنة في أحشائها، فليسألسوا الغواص عن صدفاتها، وها هي قصيدة حافظ إبراهيم التي يقول فيها عن اللغة العربية:

وَسِعْتُ كتاب اللهِ لفظاً وغايةً
وما ضقتُ عن آيٍ به وعِظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصف آلةٍ
وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائي الدُّرُّ كامنُ
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
أيهجرني قومي ـ عفا الله عَنْهُم
إلى لغةٍ لم تتصل برواة
سَرت لُوثَةُ الإفرنج كماسَري
لُعَابُ الأفَاعِي في مَسِيل فُرات

كما قال العقاد عنها:

«إن أهم مزايا اللغة العربية وهي فصاحة ألفاظها بالمفهوم العلمي».

ومن مزايا اللغة العربية وخصائصها التي تميزت بها نموها وازدهارها، فقد لاحظ العلماء نمو اللغة العربية بأساليب مختلفة، منها:

ـ **اكتساب كثير من مفرداتها معاني جديدة،** أضيفت إلى معانيها التي كانت في أصل الوضع. فكلمات مثل: النفس، الروح، العقل، المجد، الصلاة، الصوم، الزكاة، القراءة، الكتابة.. إلخ لم تكن تعني في العصر الجاهلي ما أصبحت تعنيه في العصر الإسلامي.

ـ **التوليد الذاتي:** وقد تحدث عنه القدماء بتحفظ وحذر، وقالوا عنه «ما أحدثه المولدون الذين لا يحُتَج بألفاظهم» والتوليد في نظر المحدثين «وهو لفظ عربي البناء أعطى في اللغة الحديثة معنىً مختلفاً عما كان العرب يعرفونه»، حيث فرضت المدينة الحديثة معاني جديدة على كثير من الألفاظ، كالسيارة، والطيارة والهاتف، والمذياع، والحضارة، وعلم الاقتصاد.. إلخ. ولم يكن التوليد بالوضع اللفظي فحسب، بل الوضع المجازي كالقوة الضاربة، والسوق السوداء.. وغيرها، ولا ننسى التوليد بالاشتقاق، وهو أخذ كلمة من كلمة أخرى مع المحافظة على قرابة بينهما، لفظاً ومعنى، مما جعل آخر هذه اللغة يتصل بأولها في نسيج خاص بها، من غير أن تذهب معالمها. فإذا أخذنا كلمة (كتب) على سبيل المثال ـ واشتقنا منها: كاتب، وكتاب، ومكتبة، ومكتوب وجدنا أن الحروف الأصلية موجودة في كلِّ كلمة من هذه الكلمات، وأن معنىً مشتركاً يجمع بينها، وهو الكتابة، وذلك على عكس اللغات الأوربية فكاتب في الإنجليزية (Writer)، وكتاب (Book)، ومكتبة (Library) ومكتوب (Leter)، ويُلاحظ أن لا علاقة بين حروف هذه الكلمات. وهذا مما جعل لغة الإنجليزية تختلف من جيل لآخر ولا توجد تلك الصلة بين ماضيها وحاضرها، كما هو الحال في اللغة العربية فلغة شكسبير وهو من أدباء القرن السابع عشر لا تكاد تُفهم عند كثيرين من المثقفين اليوم، اللهمَّ إلا المتخصّصين في الأدب الإنجليزي. ويرد بعض الباحثين هذا الأمر إلى اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل، وإلى نمو اللغة بطريقة الاشتقاق، وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة في غالب الأحيان.

ـ **أما النحت:** فقد عرفهُ العرب منذ زمنٍ بعيد وسيلة من وسائل نماء لغتهم، إذ دمجوا كلمتين أو أكثر في كلمة واحدة، تتضمن كلٌّ منها معنىً ملحوظاً في المصطلح المنحوت، وقد لجأوا إليه للاختصار، وعقدوا فصولاً في

كتبهم. والنحت عند معظم القدماء سماعيٌّ، وعده ابن فارس قياسياً. ولكن أبا حيان الأندلسي قال في شرح التسهيل: وهذا الحكم لا يطّرد وإنما يقاس منه ما قالته العرب، مثل حيعل (حيّ على)، وحوقل (لا حول ولا قوّة إلا بالله)، وسبحل (سبحان اللّه)، ودمعز (أدام الله عزّك).. إلخ.

- **القياس:** وهو حمل مجهول على معلوم، وحمل غير المنقول على مانُقل. وكان القياس وسيلةً من وسائل نموّ اللغة العربية وتوسعها، وإذا كان البصريون يتشددون فيه، ولم يجيزوا القياس على الأمثلة القليلة، فإن الكوفيين قد أجازوا على المثال الواحد المسموع، وقد أخذ بعض المحدثين بذلك، ودعوا إلى الانتفاع بالوارد المسموع، لتمنح اللغة قوة وسعة لمسايرة الحياة المتجددة بمستحدثاتها العلمية والحضارية.

ومن خصائص العربية أيضاً: ظاهرة الإعراب. وهذه الظاهرة ليست حُلية لفظية أو علامات لا تفيد معنى، إذ هناك ارتباط وثيق بين الإعراب والمعنى فلولا الإعراب ما مُيز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام ولا نعت من توكيد، وليس أدل على علاقة الإعراب بالمعنى من تفحص آيات القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم الأدب، شعراً ونثراً، فنجد أن المعنى يتوقف أحياناً على الإعراب فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ﴿٢٨﴾ سورةفاطر، وقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ ﴿١٢٤﴾ سورة البقرة، وقوله﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ﴿٣﴾ سورة التوبة، فإن إغفال الإعراب في مثل هذه الأيات يوقعنا في تحريف لمعانيها.

- وقد هيأ الإعراب للمتكلم الحريّة، فله التقديم والتأخير، اعتماداً على ظهور المعنى، كتقديم الخبر في مثل قوله تعالى:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ سورة الذاريات، وتقديم المفعول به على عامله)، كقوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾﴿٥﴾ الفاتحة.
- ولا تقتصر وظيفة الإعراب على أواخر الكلمات فحسب، بل تشمل أوائلها وأواسطها أيضاً (أكَلَ، سَرَقَ، سُرِقَ، نِعْمَ، نَعَمْ).

ومن المزايا التي تفردّت بها اللغة العربية: ما يدعونه المثنيات التي لا تُفرد) وهي قسمان: الأول تلقيني، والثاني تغليبي، فالتلقيني هو ما إذا أُفرِد لم يفد المعنى الموضوع له في التثنية، فلا يصح إطلاقه على أحد المسميين مثل: الثقلان (الإنس والجن)، والجديدان (الليل والنهار).

قالت الخنساء:

إنَّ الجديدينِ مع طُولِ اختلافِهما
لا يَفْسُدان ولكنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

أما التغليبي، فهو ما إذا أُفرد صح إطلاقه على المتغلب من الاثنين. ومن هذه المثنيات: الأبوان، القمران، العُمَران، المغربان، المشرقان.. إلخ.

كما لاحظ عباس العقاد أنّ من صفات الحروف العربية توزّعها في أوسع مدرجٍ صوتّي عرفته اللغات، بالإضافة إلى أن أبجديتها ليست أكثر عدداً من الأبجديات في اللغات الهندية والجرمانية، واللغات الطورانية، أو اللغات الساميّة، فإن اللغة الروسية، مثلاً، تبلغ 35 حرفاً وعلاوة على ذلك فإن الخصائص الصوتية للحروف العربية تؤكد ثباتها.

فالبرغم من التشويه والتحريف الذي طرأ على الحروف في اللهجات العامية، فإن الحروف ما زالت كما كانت منذ أربعة عشر قرناً.

وهذه سمات ومزايا اللغة العربية التي تميزت بها وانفردت عن كل لغات العالم بها لأنها لغة كتاب الله عز وجل القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه ورعايته وهو المعجزة الخالدة والباقية لرسولنا ﷺ، فهي خالدة باقية ببقاء القرآن.

الترجمة ونقل العلوم العربية إلى الغرب

من المؤسف أن يصف بعض الباحثين من الأوربيين دور العرب في نقل المؤثرات الفكرية إلى أوربا خلال العصور الوسطى، والتي نجم عنها التطور التاريخي لأوربا وانتقالها إلى عصر النهضة بدور الوسيط، أو مثلما ينعتونهم أحياناً بـ (سُعاة البريد)، أي أن العرب كانوا مجرد واسطة لنقل الحضارة اليونانية، وأن الأخيرة ما هي إلا امتداد للحضارة العربية واقتباس منها، وأن علماء اليونان قد اعتمدوا كثيراً في إنجازاتهم الحضارية على ما أنتجه وأبدعه العرب في وادي الرافدين ووادي النيل وفي بلاد الشام، وقد أكد ذلك الباحث رالف لنتون في كتابه (شجرة الحضارة) وذكر: بأننا قد بدأنا فقط منذ وقت قريب ندرك مدى الدَيْنِ الذي تدين به الحضارة الإغريقية القديمة للحضارة العربية، وأن الشواهد على ذلك كثيرة، فالطب اليوناني قد استفاد كثيراً من الطب المصري أو البابلي، وشعار الأفعى الذي يرمز للشفاء والذي نُسِبَ لليونان زوراً هو في حقيقة الأمر منحوتة من مدينة (لكش) العراقية تعود للعام 2000 قبل الميلاد، وموجودة الآن في متحف «اللوفر» كدليل بَيِّن على انتسابها للبابليين وليس لليونان، وكذلك الحال في الرياضيات فقد اعتمد اليونانيون في تقدمهم على العرب إذ أن البابليين قد سبقوهم في حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة، ونظرية فيثاغورث اليونانية أصبح معروفاً اعتمادها في الأساس على الأصل البابلي.

وحتى في حقل التاريخ، فقد لقبوا (هيرودوت) بأبي التاريخ كي يصوروا لنا أسبقية اليونان في الاهتمام بالتاريخ بيد أن العرب الفينيقيين قد سبقوهم بذلك حيث أظهروا اهتمامهم بالتاريخ منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، كما لا يمكننا إغفال ما اقتبسه اليونان والرومان من العرب في ميدان اللغة، إذ عمل اليونان على نقل الأبجدية الفينيقية بين عامي 750-850 قبل الميلاد وقد اعترف اليونان بذلك، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد انتقلت هذه الأبجدية إلى الرومان، وكُتِبَت بها اللغة والآداب اللاتينية إلى سائر العالم الغربي، إضافة إلى ذلك أن العرب عندما اطلعوا على تراث اليونان والرومان لم يأخذوه كما هو عليه، بل أقدموا على تحليله وتهذيبه فأضافوا إليه وأبدعوا، كل هذا من النقل العظيم للفكر والثقافة والطب والهندسة والجبر من علوم العربية إلى اليونان والرومان وغيرها من الشعوب كان بفضل الترجمة، كذلك تَعرّف العرب على تقدم الغرب وإضافة إبداعاتهم إليه كان عن طريق النقل وبفضل الترجمة، وتعريب الكتب غير العربية إلى العربية حتى يتضح لنا مضمونها، لذا نجد أن التعريب له أهمية كبرى وفوائد عظيمة في التقدم والرقي والسبق الحضاري.

المراجع:

ـ د. فاضل محمد الحسيني، آفاق الحضارة العربية الإسلامية، دار الشرق ـ عمان، الأردن، 2006م.

ـ د. نايف محمود معروف، خصائص اللغة العربية، دار النفائس ـ بيروت، لبنان 1998م